الحب تحت المطر
دراسة في المكونين التاريخي والواقعي

أ.م.د. عمار أحمد الصفار د. محمد صالح خلف الجبوري

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

جرت هذه الدراسة في إطار التحليل التطبيقي للمكونين التاريخي والواقعي، في رواية (الحب تحت المطر) للكاتب نجيب محفوظ، وعلاقة هذين المكونين بها، لما للرواية من ارتباط وثيق الصلة بالتاريخ الذي يهيمن على مجرى الأحداث، ويعين على قراءة حال الواقع اليوم، وما يتعرض له من تحديات خطيرة. فالماضي يمتد إلى الحاضر، ويتسرب إليه ويؤثر فيه، وإذا أردنا النظر في قضية معينة وتحليل مواقف معينة، كان لزاماً علينا أن نعود إلى الدواعي والأسباب التي تقف خلفها، في إطار تحليلي للبنية التي تشكلت منها الرواية، وقد جرى تقسيم الدراسة إلى مقدمة، وتمهيد تناولنا فيه تأثير التاريخ في الواقع، وعلاقتهما مع بعضهما، فضلاً عن العنوان، وما يحمل بين طياته من مضمون يساعد على الولوج إلى باطن النص، ثمّ المتن الحكائي الذي تجلت فيه أحداث حزيران ١٩٦٧، وتأثيراتها في الشخصيات والأحداث، ثمّ تناولنا الشخصيات ولاسيما المحبطة منها والملتزمة، وأبعاد تقديمها، وما لها من علاقة بالإحداث؛ كونها المحرك الأساس لها، ثم خاتمة اشتملت على النتائج التي خرجت بها الدراسة، فالرواية تعنى بأفعال الناس وردود أفعالهم تجاه ما يدور حولهم من أحداث، تجعلهم يفكرون ويتصرفون على هذا النحو أو ذاك، والدواعي التي تقف خلف سلوكياتهم، والحلول التي يطرحها الكاتب كي تساعد على تخطي المعوقات، ووضع اليد على الجرح الذي كان السبب في ما تعانيه الأمة من انكسار وانهزام.

بين التاريخي والواقعي: ما دمنا في صدد دراسة المكونين التاريخي والواقعي للرواية كان لزاماً علينا أن نبيّن علاقتهما بها بوصفها فناً حديثاً، وأن الرواية لا تقوم إلاّ على هذين المحورين، ولا توجد خارجهما ، كذلك نبيّن الفرق بين الرواية التاريخية وتوظيف التراث في الرواية المعاصرة، فالتاريخية تكون صفة للرواية، يرسم لنا الروائي من خلالها معالم خاصة ، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ، وتفقد خصائصها لصالح التاريخ، الذي يهيمن على مجرى الأحداث. والشخصية التاريخية لا تحيل إلاّ على نفسها، إذ لا يجد القارئ معها رابطاً أو قاسماً مشتركاً بينه وبينها. أمّا الروايات لتي تعتمد على التاريخ وتوظفه في خدمة الأحداث، فإنها تقوم باستحضار ما يعينها من التاريخ على قراءة حال الواقع اليوم وما يتعرض له من تحديات خطيرة، فالماضي يمتد إلى الحاضر عن طريق الذكرى التي تعد الجسر الذي يوصل الماضي بالحاضر، ويتسرب إليه ويؤثر فيه، وإذا ما أردنا النظر إلى قضية معينة وتحليل مواقف معينة كان لزاماً علينا أن نعود إلى الجذور الأساسية التي كانت السبب في ما يحصل الآن، ومن خلالها نفهم حقيقة الواقع المعاش ونفسر الدواعي والأسباب التي أدت إلى تشكل الواقع. فمن خلال الماضي نستطيع النظر إلى الحاضر، وملامح الحاضر وتقاسيمه يمكن تحديدها عن طريق الماضي، لأن الحاضر ما هو إلاّ انعكاس وردّة فعل لما حصل، وكأن الماضي مرآة تنعكس عليها أحداث الحاضر، كذلك على الأديب المعاصر أن يكون واقعياً في رسم الحقيقة الظاهرة في المجتمع، دون مواربة أو مجاملة، لأنّ الحقيقة وحدها هي السلاح الذي يجهز على الكثير مما تعانيه الأمة، وخير سبيل لحل مشكلاتها الكثيرة. وقد تلجأ الرواية إلى التاريخ؛ لكنها ليست التاريخ بحد ذاته كما أنها ليست بديلاً عنه، ولكنها وسيلة للبحث التاريخي والتحقق والتأكد من صحة الوقائع.

(ونجيب محفوظ) في روايته هذه يصور لنا نكسة حزيران (١٩٦٧)، وتأثيرها في الواقع الذي يمرّ به الكاتب، وما أحدثته هذه من أثر سلبي كان له وقع كبير على الشعب العربي، وما أحدثه هذا الأثر من تغيير في الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي لدى المجتمعات العربية، والكاتب لا يصرح بهذا وإنما نجد ذلك مبثوثاً في ثنيات النص، وما طرأ على الشخصيات والأحداث في الرواية من شعور بالإحباط، كان له انعكاسه على سلوكياتها وعلى أوضاعها النفسية والفكرية. فالكاتب يتأثر بما يدور حوله في المجتمع، وأعماله هي وليدة

هذا التأثر، لذا نراه يطور الشخصيات والأحداث بحسب الظروف التي تحيط به، إلاّ أننا نجد أن هناك من يرى في روايته هذه أنها لم تكن بالمستوى المعهود عن كاتب مثل نجيب محفوظ، وأن أعماله في هذه الفترة تتعرض لانتكاسة، والسبب هو تأثره إلى حد كبير بانتكاسة(حزيران)، التي كان لها أثرها الكبير في الشعوب العربية عامة، وعلى الأدب العربي خاصة. وقد ظهر هذا جلياً في أغلب أعمال الكتّاب العرب الذين بدت على أعمالهم ملامح الانهزام والتراجع، وهذا بدوره يعود إلى ما للواقع التاريخي للأمة من أثر في نفوس أبنائها، مما دعا بعض النقاد إلى الحكم على أعمال نجيب محفوظ التي أعقبت تلك الفترة " بأنها نكسة فنية حقيقية (١)، إذا ما قورنت بثلاثيته التي ظل فيها هو فارس الميدان، والحقيقة أنها ليست نكسة كما يعتقد من أصدر مثل هذه الأحكام، وإنما هي مرحلة جديدة في حياة الكاتب الأدبية والفنية، خلقتها الظروف المحيطة به، والحاجة الملحّة التي تلزم الأديب أن يتحول في طريقة عرضه للأحداث، وفي طريقة معالجته للقضايا المصيرية التي تتطلب منه موقفاً حاسماً إزاء ما يدور حوله من أحداث، فهو بطبيعته إنسان، والإنسان مهما كان فردياً (أنانياً)، فهو في قرارة نفسه يحسّ بأنّه فرد في المجتمع الذي يعيش فيه، وصاحب الموهبة يدفعه إحساسه وشعوره . من حيث يدري أولا يدري . إلى الانغمار في المجتمع والتفاعل معه، لأن رؤاه البعيدة الدقيقة . التي لا تتوافر عند معظم الناس . تجعله يكتشف المجهول ويحاول أن ينقل رؤاه إلى مجتمعه بالأداة التي وهبها الله له، فهو مصوّر عصره وشاهد عليه(٢) ، ومنذ الحرب العالمية الأولى وإلى وقتنا هذا نجد أنّ هناك طبقات في المجتمع تظهر مع ظهور الأزمات والنكبات التي تتعرض لها المجتمعات، فيجد الأديب نفسه ملزماً أن يشعر بشعورها وأن يدافع عنها، ويرفع الحيف الذي أصابها ويساعد على إيجاد الحلول المناسبة لمعاناتها وللمشكلات التي تعوق مسارها، من هنا يمكن أن نؤكد أن سيطرة الاتجاه الواقعي على غالبية النتاج الروائي العربي، ولاسيما بعد النكسة، جعل الأديب العربي (الروائي بالذات) يدرك حقيقة الجدلية القائمة بين الأديب والحياة، فالأديب محصلة لعلاقاته الاجتماعية التي لا يمكن الفرار منها، أو الانعزال عن تأثيراتها، ولاسيما في الظروف التي تلت تلك الأحداث والتي تميزت بخصوصية جعلت انطواء الكاتب غير ممكن أمام الثقل النفسي والاجتماعي، لذلك نستطيع القول أن هناك تواشجاً شبه

دائم بين الروائي والظرف الاجتماعي والسياسي والنفسي الذي يواكب مسار الشعوب العربية، وعلى وجه الخصوص الشعب الفلسطيني الذي كان للأحداث التي مرّ بها، ويمرّ بها إلى الآن وقعها الكبير على الأعمال الأدبية(٣)، فكيف إذا انتقلت المعركة إلى بلد الكاتب نفسه، وأخذت تأثيراتها تنخر في جسد مجتمعه، أمام عينيه.

العنوان : للعنوان دلالة تحمل بين طياتها مضمون الكتابة المندرجة تحتها ، وهو المفتاح الذي بواسطته يمكننا الولوج إلى عالم النص ، فهو نصّ يحمل ويفسر في الوقت ذاته معنى لنص آخر ينضوي تحته، ليكون مدخلاً إلى عالم رحب، وعتبة من عتبات النص، يمكن للدارس أن يجد ضالته فيه؛ لما يحمله من أهمية في سبر أغوار ما يتقدمه من نص، حيث يستطيع العنوان " أن يوحي بتفكيك النص من أجل تركيبه عبر تحليل بنياته الدلالية والرمزية، فهو الظاهر الذي يدل على باطن النص ومحتواه، وهو نصّ صغير يعدّ مدخلاً لنص كبير (٤) ولا يمكن لهذا النص أن يعمل باستقلال تام عن البنية الكبرى التي تحته (٥)؛ لحرص الكاتب في الغالب على جعل المتن يُستشف من العنوان، وإن كنا في بعض الأحيان نلاحظ أن هناك عناوين تصدرت بعض الأعمال لم نجد لها صلة تذكر بالمتن، إلا أننا مع هذا يمكن أن نعزو ذلك إلى أنها محاولة من الكاتب يروم بها لفت عناية المتلقي وجذب انتباهه نكاية به، أو من خلال ما تحدثه مثل هذه العناوين من اهتمام لدى المتلقي وتشده إلى معرفة ما تحتها من خبايا .

والقارئ لعنوان رواية الحب تحت المطر يجد أن النص الروائي برمته يتمحور حول هاتين المفردتين، لما تحملانه من دلالات فنية وأدبية. (فالحب) هو العلاقة الحميمة التي وهبها الله سبحانه وتعالى لنا وزرعها في نفوسنا، وجعلها السبب الذي من خلاله يتقرب الإنسان من أخيه الإنسان، والحب هو الخير كله، وجميع الأديان والشرائع السماوية تحرص على هذه المسألة التي على أساسها تنصلح أوضاع من على الأرض إذا كانت قائمة على أساس من المحبة والتسامح، وحب الخير لجميع الناس. في حين نجد أن المفردة الثانية في العنوان هي (المطر)، وللمطر دلالات كثيرة منها ما يتضمن معنى الخير وأخرى قد تحمل معنى الشر والعذاب،" فالمَطَرُ: واحد الأمْطار. ومَطَرَتِ السماءُ تَمْطُرُ مَطْراً، وأمْطَرَها الله .. والاسْتِمْطارُ: الاستسقاء(٦) ، والمطر في القرآن الكريم لم يرد إلا في مواطن العذاب والدمار الذي أصاب

القرى التي كفرت وكذّبت بما أنزل عليها من رسل، وقد ورد هذا في غير سورة من سور القرآن الكريم، منها ما حمل معنى المطر الوابل، الذي يغطّي ويدمّر الأرض التي يسقط عليها، ومنها ما هو حجارة تتساقط من السماء دمّر الله تعالى بها القرى التي عصت وتكبّرت على أمر الله، وعلى رسله الّذين بعثهم رحمة للعالمين:

" ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر(٧). هنا وردت مفردة المطر للدلالة على الماء الغزير المنهمر الذي يدمّر الحرث والنّسل وليس في معنى الغيث والإنبات. أمّا في المواطن الأخرى من القرآن الكريم فإن دلالة مطر تحيل إلى نوع آخر من المطر، إنها الحجارة التي أُهلكَ بها قومَ لوط، وغيرهم من القرى التي كذّبت رُسُلها:

" ولقد أتوا على القريةِ التي أُمطِرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا(٨). فالقرية هي: (سدوم)؛ وهي قرية قوم لوط، التي أهلكت بحجارة من السماء(٩)، فقد أمطر الله تعالى عليهم حجارةً أهلكتهم فما أبقت عليهم من باقية.

"وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطرُ المنذرين(١٠).

"وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطرُ المنذرين(١١).

وردت في الآيتين بمعنى واحد، ولفظ واحد؛ إذ أنزل الله بهم أشد أنواع الهلاك والتدمير. فالكاتب استعارها من القرآن الكريم،ووظفها في عنوان روايته لتدل على معنى الدمار والخراب؛ الذي يعد من سمات الحروب التي لا تخلف ورائها غير ذلك، لاسيما إذا علمنا أن الرواية كتبت بعد أحداث حزيران وما خلفت من جروح بليغة أصابت الكاتب العربي في الصميم. لذا أراد الكاتب أن يصوغ من تلك الظروف التي أعقبت النكسة أحداثاً روائيّة ويصبها في قالب فني يحرص فيه على خلق الجمال الذي هو في الأساس جوهر الفن ومبتغى الفنان، وهو في ذلك يبحث عن جمالية المواقف المؤلمة؛ لأن الجمالية في الفن ليست حكراً على المواقف المفرحة، وإنما تتعداها إلى المحزنة التي يعمد من خلالها الكاتب إلى كسب عاطفة المتلقي وميوله واستنهاض مشاعره وأحاسيسه.

المتن الحكائي: تدور أحداث الرواية في القاهرة التي يناضل أبناؤها من الوطنيين ضد الاحتلال الصهيوني ، وهم يعيشون حالة من الفقر وكأنهم غرباء عن هذا البلد في حين ينعم غيرهم من أصحاب رؤوس الأموال بالدور الفارهة ، يمتصون دم الشعب المشرد العاطل الذي يعيش على فتات هؤلاء المستغلين، والأحداث ما هي إلاّ انعكاس للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي سادت مصر بعد نكسة حزيران، فهي صورة صادقة لحياة الركود والعطالة التي أصابت المجتمع، وأخذت تنخر في جسده، حياة مملّة نتلمّسها من خلال تصوير الكاتب للشخصيات ولحياتهم المنهكة، التي يعانون فيها وطأة استغلال أصحاب رؤوس الأموال، الذين ليس لرغباتهم وشهواتهم حدود. لذلك فمن واجب الأديب في مراحل التحولات الاجتماعية والسياسية الحاسمة، أن يصور حياة الطبقات المظلومة والمقهورة، وعليه أن يتناول مشاكل المجتمع ومظاهر البؤس والفاقة التي ترزح تحت وطأتها طبقات الشعب العاملة بسواعدها أو بعقولها، وذلك لإيقاظ وعي الجماهير ودفعها إلى إيجاد حلول لتلك المشاكل. وقارئ رواية (الحب تحت المطر) يجد أنها تعكس بوضوح طموح الطبقات وصراعاتها، لما اشتملت عليه من دقة في رسم الأطر الزمانية والمكانية التي دارت فيها أحداث الرواية، كذلك شدة انتمائها إلى كاتبها وبيئتها المصرية المتعددة الولاءات الطبقية.

إن في الرواية ثورة على جشع البرجوازية وانحرافها، وتقويم المعوج وتصويب المسار نحو الأحسن، وهذا يتم عبر كشف جذور العلاقات الرأسمالية وسبل نمائها وفضح عيوبها، وتسليط الأضواء على زوايا التخلف والانحلال الخلقي والاجتماعي، ورصد كوامن الخلل والتناقض والتطرف السلوكي والفكري بين أفراد المجتمع. إذن الرواية تسلط الضوء على بعض القضايا التي أخذت تنخر في جسد المجتمع، ورفض المجتمع لها، وتقديم الحلول التي من شأنها أن تعالج مثل هذه القضايا الاجتماعية والإنسانية، ومعاقبة المسيء ومكافأة المحسن في إطار أخلاقي ارتقى فيه الأدب إلى أرفع الدرجات الإنسانية والفنية، بعد أن جمع في وقت واحد بين الصدق الواقعي والفن الخالص، وهذه من سمات الأدب الواقعي الذي يهدف إلى التصوير الحياتي المادي الأمين لدقائق الحياة اليومية للأفراد والجماعات مع اختلاف تحركاتها وتنازعها ومجالس أنسها وسحرها ورقودها ويقظتها؛ لأنّ ذلك كله هو الواقع بعينه والمثال الذي تقاس

عليه الأشياء وتتصل به النفوس، وتستعيد ما كانت عليه وتترقب ما تؤول إليه في مقتبل الأيام (١٢).

لقد أصبح لقصة الحرب انجازات لا يستهان بها وبقيمتها الفنية، مما أوجب علينا النظر

الجدي في هذه الظاهرة لتأشير هذه الانجازات واستخلاص النتائج والعبر، بالاعتماد على مبدأ توثيق القيمة الفنية لها والتي هي في الأساس الإشارة الدالة على البنية الجمالية للنص، وإذا كان حدث الرواية الأساس هو (الحب) والحب أسمى من جعله وسيلة، فإن هذا لا يعني أن الرواية تسعى وراء هذا الحدث وتأثيراته في الواقعين الاجتماعي والنفسي، وإنما البحث عن مخاطر الحرب وما تحدثه من تأثير على المستوى الثقافي والفكري والاجتماعي للمجتمع الذي يتعرض لمثل هذه الظواهر. فالكاتب لم يعمد إلى توثيق أحداث الحرب وإنما كانت هناك بعض الإشارات التي يخبرنا بها عن هذه الظاهرة :

" زرت الجبهة أخيراً ضمن وفد من المصورين السينمائيين والتقطت صوراً لبورسعيد شبه الخالية....(١٣).

والحقيقة أن سبب ذلك يعود إلى أنّ الفن الروائي أو القصصي ليس من مهمته توثيق الأحداث؛ لأنّ التوثيق النفسي المعبّر عن الوجدان البشري هو أحد أهم وظائف الفن الذي يتناول أحداثاً كهذه، ومهمة الفنان هي خلق ما هو معبر عن الوجدان البشري ولاسيما إذا علمنا أن الحرب هي أكثر الوسائل نيلاً من إنسانية الإنسان. وهذا واضح في الحوار الذي دار بين عليات وإبراهيم :

. كيف تجد الليلة، صدمت بالانتقال من باطن الأرض المزلزلة بالانفجارات إلى دنيا القاهرة الثملة بالصخب.

. أصبحت عادة

. وامتعاضك العتيد

فأجاب بنفس اللهجة:

. أصبح عادة أيضاً

ثمّ وهو يبتسم:

. الموت نفسه أصبح عادة يوميّة (١٤).

من هنا يمكن أن نلاحظ أثر الحرب في نفس الشخصية، وشدة وقعها عليها، ومدى ما تحدثه من إحباط كبير وشعور باليأس، قد يصل إلى مرحلة لا يفرق معها العيش فوق الأرض أو تحتها.

كذلك نلاحظ أن الكاتب يميل إلى أن يمنح تجربة الحرب شكلاً جديداً خاصاً نابعاً من رؤيته الفنية لها، ومستنداً إلى وقائع منتقاة من غرائب أو اعتياديات الحرب؛ ويعتمد في ذلك على ما تمارسه من تأثيرات وانعكاسات نفسية واجتماعية على الناس والحياة، وهذا الحدث لا يمكن النظر إليه بمعزل عن الشخصيات التي تحرك هذه الأحداث، لأن الشخصيات تكتسب صفاتها الخاصة المعبرة عن كينونتها الذاتية عن طريق تفاعلها مع الأحداث سلباً أو إيجابا. فالحرب تتصل في جوانب منها بإدراكنا الحسي أو العقلي لحقائق أو انفعالات مطمورة تحت ركام العادي واليومي، فإذا ما استحضرت بفعل الفن والخبرة الجمالية المتولدة عنه، فإنها قد تثير فينا الإحساس العميق بالألم الحسي أو العقلي " فالجمالية يمكن أن تكون موقفاً شاملاً من الحياة، والحرب باعتبارها ظرفاً طارئاً واستثنائياً تمر به الحياة، فهي بهذا الوصف أغناء للروح، أغناء للعقل أغناء للحس الفني، وبذلك يصبح مشروعاً لنا أن نتحدث عن جماليات قصة الحرب، ليس من باب نسيان حقائق الحرب، بل من باب الإدراك الأعمق والأكثر فاعلية لها(١٥)، وهذا ما ذهبت إليه الدكتورة سهير القلماوي في سبعينيات القرن المنصرم، إلى أنّ المؤرخين سيناقشون هزيمة ٥ يونيو طويلاً، ويختلفون كثيراً في الآراء حول أسبابها ووقائعها ونتائجها ولكنهم سيتفقون اتفاقاً تاماً حول خطرها وأثرها. لقد غيرت هذه الهزيمة من تاريخ الأمة العربية تغيرات جوهرية ومثلت لنا وللعالم، أي للقوى الكبرى التي تحرك السلام والحرب والاقتصاد والعلم ، منعطفاً أساسياً في مسار التاريخ(١٦). لذلك كان لابدّ على الأديب أن تكون وظيفته الاجتماعيّة عند كثير من الناس تعطي المعنى(السياسي)، وهذا أمر طبيعي؛ لأنّ مسؤولية الأديب تلحّ عليه وتدفعه إلى المشاركة في الكفاح والعمل على نصرة الحق وتنبيه

الناس إلى معرفة ما يحيط بهم من ظلم وجور، مع الأخذ بأيديهم إلى الطريق الذي يوصلهم إلى حقوقهم(١٧) وإلى هدفهم المنشود.

الشخصيات : تلجأ الرواية التي تعتمد في بنائها على التاريخ إلى الشخصيات أكثر من لجوئها إلى الأحداث وتعنى بأفعال الناس وردود أفعالهم الإنسانية والاجتماعية التي جعلتهم يفكرون ويتصرفون بهذا الشكل أو ذاك "كون الشخصية هي ما يميز الأعمال السردية عن بقية أجناس الأدب الأخرى(١٨)، فضلاً عن أنّ الشخصية هي صاحبة الفعل والدافعة إلى الحدث، وهي مصدر المشاعر... وهي التي تنتج الحدث وتدفعه وتبنيه (١٩)، كما وتعنى بالحياة الشعبية وبتفاصيلها أكثر من أي شيء آخر، كذلك يكون للشخصيات الثانوية حضور أكثر من غيرها، على العكس من روايات المغامرة التي يكون فيها الدور الكبير للشخصية الرئيسة، والتي تتقزم أمامها باقي الشخصيات، ولا يقتصر دورها إلاّ على إظهار عظمة البطل وعبقريته، فهي توظف لخدمته، أما في هذه الرواية، فإنها تكون محط اهتمام الكاتب ورعايته؛ لما لها من دور في تحريك الأحداث ودفعها إلى ذروتها، وإلى النهاية التي يرسمها لها الكاتب أو أرادها لأحداثه. لذلك نلاحظ أنّ الرواية تعنى بالحياة الشعبية، وبتفاصيلها العادية، من شخصيات وأماكن، وترصد لنا تحركات الشخصيات وسكناتهم في تلك الأماكن والحارات والشوارع والمقاهي، التي تعبّر عن طبيعة الحياة التي تحياها تلك الشخصيات بعيداً عن التزييف والتزويق، إذ لا نجد أي حضور للقصور الفارهة وبهرجتها التي يمكن أن تجعل الكاتب يجانب الواقع؛ لأنّ مثل هذه الروايات إذا لم يقدر لها أن تحظى بالقبول والنجاح، ولاسيما في ما يخص قراءة التاريخ وفهمه، فإنها ستكون عرضة للتلاشي والاضمحلال. وعلى الكاتب أن يكون صادقاً في ما يعرض من أحداث، والصدق الذي نعنيه في هذا الموضع هو الصدق الفني، الذي لا يقصد به النقل الحرفي للأحداث والوقائع اليومية، وإنما نقل ما يعتمل في داخل كل شخصية تجاه ما يحيط بها من ظروف، وما تمر به من أحداث، وتأثير تلك الأحداث في سلوك الشخصيات أفراداً وجماعات، فالذي يجسد التاريخ في أي عمل من أعماله، نراه يعمد إلى تصوير انتصاراته وتوثيقها بالطريقة التي يختارها هو، دون أن يكترث لتضحيات المهزوم وما قدمه في نضاله، كذلك يحاول المهزوم من تعامله مع التاريخ أن يقدم الحلول التي تساعده على تخطي

المعوقات وتصدير النصر إلى المستقبل، ووضع اليد على الجرح الذي كان السبب في خسارته.

والكاتب في روايته يعمد إلى أكثر من طريقة في تقديم شخصياته؛ لأن الشخصية الروائية من صنع الكاتب، وبعد خطوات تصبح لها حياتها المستقلة في الرواية، بغضّ النظر عن النوايا والأهداف التي رسمها لها الكاتب، ولا تأخذ هذه الشخصية ملامحها الكاملة إلاّ بعد أن تتطور تبعاً لعدد غير محدود من العناصر، التي تساعد في ظهورها وتطورها على مسرح الأحداث. ومن أنماط تقديم الشخصية :

١. الشخصية المحبطة: هي شخصية تعاني من انكسار وانعزال واضحين على سلوكها، يصاحبهما قلق واضطراب دائمين، وشعور بعبثية الحياة؛ الناجم عن الشعور بالعدمية؛ بسبب انعدام الحرية، وعدم الاستقرار الذي يعود إلى سوء الأوضاع، والحقيقة إن مثل هذه الشخصيات تنبثق من تمرد الكاتب على المجتمع، لذا نجده يعلن ثورته وتمرده عليه؛ بسبب شعوره بأن المجتمع ينفره ويراقبه ويضعه محط أنظاره بالشكل الذي يجعله يفقد الثقة بالذين من حوله، لذلك نجد هذه الشخصيات تصاب بالانكفاء والانعزال؛ لأنّ الهزيمة تستقر في أعماق البطل المحبط، فهي قدره الذي رضي به وسوّغه، " إن البطل المحبط متشائم ولا مبال وذو نزعة سوداوية، وهو يغلق كل النوافذ التي قد تتفتح أمامه. إنه يائس ومنعزل تماماً عن حركة المجتمع من حوله، وهو لا يريد أن يكون جزءاً من مجتمعه يؤثر فيه ويتأثر به، ولا يعنيه أن يتقدم هذا المجتمع أو يتأخر، وغالباً ما يتخذ موقفاً سلبياً من الناس وربما اتخذ موقفاً عدائياً هداماً من المجتمع الذي ينتمي إليه، لقد خلقت منه أزمته إنساناً مشوهاً من الداخل وعجز عن تجاوز هذه الأزمة أو إيجاد حل مناسب لها (٢٠)، ولعل الدافع إلى هذا الاتجاه في الرواية هو الحروب التي أخذت تشعر الإنسان بالخيبة وبضآلته وقلة شأنه؛ لأنّها تُعدّ من المسائل التي تفرض نفسها على كل ضمير يعيش في البلد الذي يتعرض لمثل هذه الأحوال، وهذه من المسائل التي لا يمكن تجاهلها كونها مسألة عامة وجماعية، ترتبط بكل تكوينات ذلك المجتمع لما تحدثه من تغيير على طبيعة الحياة التي يحياها أفراد المجتمع، لذا كان للحرب دور كبير في تقديم الشخصيات لما تفرزه من صور أخلاقية، وجدت امتدادها في البناء التربوي الإسلامي

والعربي، فلم تكن مواقف المواجهة لهذه الشخصيات في الرواية واحدة، وإنما نراها تختلف من شخص لآخر، كذلك نجد أن ردّة الفعل لدى الشخصيات تجاه ما يجري من أحداث تباينت واختلفت بين مؤيد للحرب ورافض لها. كما في هذا المشهد الذي يمكن من خلاله أن نبين الواقع الاجتماعي والفكري والنفسي لمجموعة من الأشخاص :

" وثار سالك بحريمه في عباب الزحام غضباً لكرامته الشخصية فيما بدا وصاح :

. اخجلوا من أنفسكم واذهبوا إلى الجبهة إن كنتم رجالاً..

ولم يخجل أحد فيما بدا أيضاً. وتساءل صوت:

. لم يريد أن يرسلنا إلى الجبهة قبل الأوان ؟

وقال صوت آخر ساخراً:

لعله يظن أنهم يرسلون النساء والكهول !

وشبعت شلة من وقفتها فانسحبت من معسكرها ومضت إلى " جنيفا " فتجمعوا حول بضع زجاجات من البيرة. وجعلوا يشربون ويتكلمون كما يحلو لهم (٢١).

فالمشهد يصور لنا أجواء الحرب وانعكاساتها على الشارع المصري، كونها من المسائل التي تفرض نفسها على كل ضمير يعيش في البلد الذي يتعرض لمثل هذه الأحوال، وهذا من المسائل التي لا يمكن تجاهلها كونها مسألة عامة وجماعية وترتبط بكل تكوينات ذلك المجتمع من خلال ما تحدثه من تغيير على طبيعة الحياة التي يحياها أفراد ذلك المجتمع، لذلك كان للحرب دور كبير في تقديم الشخصيات؛ لما تفرزه من صور أخلاقية وجدت امتدادها في البناء التربوي الإسلامي والعربي. فالمواقف لم تكن بمستوى واحد وإنما تباينت الشخصيات في مدى استجابتها للأحداث وانقسمت الشخصيات بين ملتزم يؤمن بعدالة القضية التي جرد لها السلاح وبين متسكع في الحانات أو محبط وصلت به الأمور أقصى حدود الضعف والهوان، كما في الحديث الذي دار على لسان بعض الشخصيات :

" لعله يضن أنهم يرسلون النساء والكهول..! (٢٢).

أنظر إلى أي مستوى من الانحلال وصل إليه حال بعض الشباب العربي، وأين هو من الشخصية المسلمة التي ارتوت من منهل السنة النبوية المطهرة، والتي لا تقاس بالشخصية الاجتماعية التي ربتها النظم الوضعية المعاصرة، فشخصية المسلم يجب أن تكون شخصية اجتماعية راقية، كونتها مجموعة كبيرة جداً من مكارم الأخلاق نطقت بها نصوص هذا الدين الحنيف من قرآن كريم وحديث شريف، وجعلت التخلق بهذه الأخلاق ديناً يثاب عليه المرء ويحاسب على تركه(٢٣)، لا أن تكون الشخصية مزيجاً من القلق والسوداوية وعدم الاستقرار مع انعدام التوازن الناجم عن الحياة المضطربة التي تعيشها الشخصية وتجعلها غير قادرة على البحث عن حلول تنهي بها أزمتها الروحية من أجل الخلاص مما تعانيه من شعور بعدم

الانتماء ورفض الحلول المتاحة لإنهاء أزمتها النفسية، التي قد تقود صاحبها صوب الهاوية أو تؤدي في نهاية المطاف بصاحبها إلى الانتحار أو الموت.

وما من شك في أن لنكسة حزيران عام (١٩٦٧) أثراً بارزاً في تكريس هذا الإحباط في الرواية العربية عموماً، وهي نتيجة لأسباب ومبررات نمت وتركزت، وجاءت نتيجة لهزيمة الأبنية الاجتماعية والسياسية والعسكرية المعطوبة، وقد فجرت العديد من القضايا والمشكلات، وكان لها أبعاد سياسية واجتماعية وعربية وعالمية(٢٤).

الشخصية الملتزمة : هي شخصية مستوحاة من الأحداث، وتنشد الخلاص الفردي والجماعي، وهي على خلاف الشخصية المحبطة تحاول رسم نماذج السلوك الإنساني في علاقتها مع الآخرين، وتبحث عن سبيل يساعدها على الخلاص من محنتها، لاسيما إذا تلاشت القيم والنظم والأفكار بسبب ظرف معين أثر على المجتمع وأصابه في الصميم، ولهذه الشخصية مهمة تروم تحقيقها وتناضل من أجلها، وربما كانت هذه المهمة" الشيء الأساس في تحريك الإنسان، ودفعه في سبيل الوصول إلى الذروة التي يتوق الوصول إليها، ويقدم من أجلها أغلى التضحيات، فيضرب بذلك مثلاً للبطولة والفداء .. وهذه المهمة هي التزام الإنسان بما يتحدث عنه، واستيعابه لأبعاد ما يدور في نفسه، وإيمانه المطلق بالفكرة التي أصبحت جزءً من حياته(٢٥)، والحرب هي أكثر ما يؤثر على الواقع الاجتماعي والفكري للشعوب؛ لما لها من

دور في حصول انقلاب لهذين الواقعين بالدرجة الأساس، انقلاب في المعايير يؤدي إلى خلق أفكار وتوجهات جديدة في المجتمع تؤثر تأثيراً كبيراً في طبيعة الحياة، لذلك نجد أن أغلب

الأعمال الأدبية ترسم على الأرض العربية وشخوصها حقيقيون وأزمتها محددة، ونجيب محفوظ في روايته يعبر عمّا يعانيه المجتمع العربي من استغلال في ظل بعض الحكومات والأنظمة الفردية الطاغية يترجم من خلال أعماله شعور المجتمع العربي المصري الاجتماعي والوطني. " والبطل الملتزم يبحث عن الحل خارج ذاته ويبحث عن الخلاص عن طريق رؤية فكرية أو سياسية يلتزم بها المجتمع كله ومن شأن هذه الرؤية أن تشفي المجتمع من علله وتقضي على ترسباته وبقايا التخلف فيه (٢٦). والكاتب يحرص دائماً على المواءمة بين

الشخصية وواقعها الاجتماعي، وأن التجربة هي وليدة تفاعل مثمر بين رؤية الأديب من ناحية، وواقعه الاجتماعي من ناحية ثانية، فالتجربة تحدد الزاوية التي يطل منها الأديب على واقعه وكيفية تفاعله مع واقعه، وهو من خلال شخصياته الملتزمة يعبر عن الحاجة الاجتماعية الضرورية التي لا تعكس ظروف الحياة الراهنة وحسب، وإنما ترسم خطوط المستقبل وتسعى إلى حياة أفضل. فالأدب تصوير للحياة؛ لأنه ينبع من كائن حي هو الأديب، الذي نستطيع . بأعماله . أن نخرج بصورة دقيقة عن حياة أي بلد في فترة من الفترات من تاريخه نتيجة انعكاس الحياة على نفس الأديب فهو كالقمر" لا يعطينا الحياة في أشعتها المحرقة ووهجها الذي يعمي البصر، ولكنّه يتلقى بعض أشعتها ويصفيها من خلال نفسه ويعرضها علينا بعد ذلك ضوءاً جميلاً ترتاح له العين ويسبح فيه الذهن ويأنس له القلب (٢٧). والكاتب في هذه الرواية لا يحتاج إلى الخيال ليستمد منه الصورة وإنما كل شيء ماثل أمامه، في حدوده الزمنية وأماكنه المحددة؛ لأنّ الكاتب جزء من هذا البلد، يتأثر في ما يقع من أحداث، ويشعر بشعوره، كذلك على الأديب أن يكون واقعياً في رسم الحقيقة الظاهرة في المجتمع، دون مواربة أو مجاملة؛ لأنّها وحدها التي تجهز على الكثير مما تعانيه الأمة، وهي خير سبيل لحل مشكلاتها.

أبعاد تقديم الشخصية:

يميل أغلب الكتاب في العديد من الإعمال الفنية الأدبية إلى اللجوء إلى الشخصيات نفسها في التعبير عن ذاتها، أو عن باقي الشخصيات الأخرى، بأن تحمل على عاتقها مهمة تطوير الحدث ونموّه، وبالتالي الوصول إلى الذروة، أو النهاية المرسومة لها.وهذا يكون بأكثر من طريقة، حسبما تقتضيه الحاجة، وحسبما تتمتع به كل شخصية من أفكار، ومن ظروف نفسية واجتماعية، والطريقة التي على أساسها أقام الكاتب أحداث روايته، فضلاً عن طبيعة الشخصيات وعلاقتها ببعضها، وميولها، ورغباتها تجاه بعضها بعضاً، وأي الشخصيات تفضل وأيّهما تكره وتزدري، وهذا يتم في بعض الأحيان عن طريق الراوي/ الكاتب نفسه، من خلال ما يدور من حديث سواءً كان داخلياً (نفسياً)، أو خارجياً (مباشراً)، يعطينا فكرة معينة عن كل شخصية من هذه الشخصيات، ويوضّح لنا إمكانية أن يستنطق به الكاتب شخصياته، أو يحمّله . في بعض الأحيان . ميوله وأفكاره، وأي الشخصيات يتعاطف معها، وأيّها يرفضها، أو يرفض أفكارها و الأيديولوجية التي تسير عليها.

البعد الخارجي: هو واحد من أبعاد تقديم الشخصية، يعمد فيه الكاتب إلى وصف الشكل الخارجي لشخصياته، من بدانة أو نحافة وطول أو قصر، وقبح أو جمال، وإلى غيرها مما يمكن أن يعطي للشخصيّة بعداً خارجياً يميزها عن غيرها، أو قد يجعلها تعرف بتلك الصفة، لتميّزها من باقي أوصاف الجسم الأخرى، إمّا لكبرها أو لصغرها أو لقبح منظرها أو خروجها عن المألوف؛ لذلك نجد أن الشخصية قد تميّز من الكاتب أو من الشخصيات الأخرى التي تشاركها الأحداث بهذه الصفة أو تلك، صفة تطغى على باقي أوصاف الجسم الأخرى، أو بعاهة أصابتها، أو غيرها من الأوصاف التي يمكن أن تدل لا على الصفات الخارجية فحسب، وإنّما قد تدل على حرفة أو مهنة الشخصية أيضاً. من هنا تبرز أهمية هذا البعد من أبعاد تقديم الشخصية، الذي يصور لنا بواسطته الملامح الجسمانية الخارجية للشخصية، التي تترك أثراً معيناً فيها، كذلك هي من العناصر الأساسية المكونة لها، والتي بدورها تتأثر بدرجة كبيرة ببيئتها، وبمظهرها العام، وبطعامها ونومها، وسلوكها(٢٨). ولهذه الأوصاف أهميّة خاصة تتجلى في كون المظهر الخارجي للشخصية، يساعدنا . في بعض الأحيان . على سبر أغوار الشخصيّة، ومعرفة كوامنها، هذا فضلاً عن أنّ الوصف الخارجي يساعدنا في التعرّف

على الشخصيات، وتحليل نفسيتها، وتقييم سلوكياتها، وبالتالي ما لهذا من تأثير في النهاية المرسومة لها، أو تجعلنا نتوقع ما سيحصل من أحداث، أو ما ستقوم به كل شخصية من أفعال، فعلى سبيل المثال إنّ خشونة الصفات الخارجية تجعلنا نحكم على شخصية معينة حكماً يختلف عن غيرها من الشخصيات التي تكون صفاتها الخارجية فيها نوع من النعومة والجمال، أو نوع من السمات التي تبعث على المودة والاحترام، إلاّ أنّ هذا ليس دائماً؛ والسبب في ذلك يعود إلى أنّ مثل هذا الحكم ممكن أن يصدر للوهلة الأولى، لكن ما أن تنمو هذه الشخصيات وتكتمل صفاتها، حتى تتغير نظرتنا وحكمنا عنها من السالب إلى الموجب أو بالعكس. فقد يعمد الكاتب على إعطاء أوصافاً خارجية لا تتناسب والدور الذي ستقوم به في الرواية، إمّا نكاية بالمتلقي، أو لخلق عنصر المفاجأة والتشويق لديه، أو لكسر عنصر التوقع. كما في هذا المثال:

" وقام عم عبده بدران ليستقبل القادم الذي أقبل بجسمه الطويل ورأسه الضخم رافلاً في بدلة بيضاء آية في الأناقة(٢٩).

فمن هذه الأوصاف التي أعطاها الكاتب للشخصيّة نعلم أنّها ليست شخصية اعتيادية، وأنّها من الشخصيات المرموقة المترفة، وهذا واضح من سيارة (المارسيدس) الفارهة التي يقودها، ومن الاحتفاء الذي قام به عم عبده بدران، الذي مضى يعد له النارجيلة . التي تمثل في الوقت ذاته شعاراً رأسمالياً . وكيف أن عشماوي ماسح الأحذية يزحف ناحيته ليمسح حذائه، ولاسيما إذا عرفنا أنّ حسني حجازي هو زبون ما بعد منتصف الليل الوحيد في هذه القهوة، وعلى هذا الأساس نشأت علاقة من نوع ما بينهم، مما جعله يأنس إلى وقار عم عبده . في الستين من عمره . ويعجب ببدلة عمله العتيقة وصلعته المستديرة الضاربة للاحمرار ونظرة عينيه الثقيلة الطيبة، وأيضاً فهو معجب كثيراً بعشماوي الذي لا يعرف له سن وإن قدّره بما بين السبعين والثمانين، ويثيره منظر هيكله الضخم الخاوي كحفريّة متبقيّة من زمن الفتونة، ويحيي بكل إجلال صموده في معترك الحياة رغم هوان الصحّة والسمع والنظر وزوال المجد(٣٠).

فمن خلال هذا الوصف الذي قدمه الكاتب لشخصياته في واحد من مشاهد الرواية، نستطيع أن نحكم على واقع الشخصية الاجتماعي والنفسي، وعلى ما تعانيه من ضغوط، فضلاً

عن التباين الطبقي الموجود بين الشخصيات والذي سيؤثر بالتالي على مجرى الأحداث، كذلك نلاحظ أن هناك اهتمام من الكاتب في وصف بيئة الأحداث وهذا بالتالي له دور كبير أيضاً في رسم الشخصية الروائية؛ لأنّ الإنسان، كما يقال: ابن بيئته، ورسم البيئة في الرواية يظهر تأثيرها في الشخصيات، ويكون لها دور ووظيفة فيها، إذ تعين على فهم الشخصيّة والكشف عن نوازعها، وأغوارها النفسيّة، هذا فضلاً عن ما للحوار من دور في رسم الشخصيات وتطوير الحدث وهذا واضح في حوار عبده بدران مع عشماوي وحسني:

" وقال عم عبده بدران ليبدد مخاوفه الشخصية بدعابة:

. وأنت يا عشماوي ألا تطالب دائماً بالحرب والنصر؟

فتحول غضبه إلى حزن وهو يردد:

. الحرب والنصر ولكني عجوز لا خير فيه !

. حسبك أنك شربت من دم الإنجليز في شبابك !

ثم نظر عبده بدران إلى الأستاذ حسني وقال:

في الثورة الأولى كنت دون السن اللازمة للجهاد واليوم أنا فوق السن المناسبة للحرب فلم أفعل شيئاً يذكر للوطن ..

. ولكن أبنك في الجبهة، خبرني هل يؤلمك تصورك أنك لم تفعل شيئاً؟

. أحياناً ولكن أعباء الحياة تغرقني حتى القمة !

ثم يستمر الحوار حتى يصل إلى الأستاذ حسني:

. إنه سباق ونحن لا نموت وحدنا !

وعند ذلك تساءل عشماوي :

وهل أولاد الأغنياء يقتلون أيضاً ؟

فلم يتمالك حسني نفسه من الضحك وقال :

ولكن التجنيد لا يفرق بين غني وفقير يا عشماوي ..

فهز رأسه في ارتياب وعاد يسأل:

. وهل يرسلونهم حقاً إلى الجبهة ؟ .. قلبي يحدثني بغير ذلك!.(٣١).

في هذا الحوار استطاع الكاتب أن يعطينا معلومات عن شخصياته وعن تاريخها وما مرّت به من ظروف، فضلاً عن ما تشعر به تجاه قضاياها المصيرية، وتجاه ما يتعرض له المجتمع من أحداث، وما تحيط به من ظروف، وهذا لم يتم إلا بفضل هذه التقنية التي ساعدت الكاتب على أن يجعل شخصياته تعبّر عمّا يجول في خواطرها، وهذا ما لم تستطع فعله باقي تقانات السرد الأخرى؛ لأنّ الحوار وحده هو ما يمكن الاعتماد عليه في ذلك، فعن طريقه تبوح

الشخصيات بما في دواخلها، ومن خلاله نحدد الاختلاف والتباين في توجهاتها؛ لذا فإنّ " خير سبيل لتجسيم الواقع هو رسم التناقضات الاجتماعيّة التي ورثناها في المجتمع، التي كانت وما زالت تعمل عملها، وتنخر في جسد المجتمع العربي وتعوق مساره (٣٢)، هذا فضلاً عن أنّ الشخصية " وهي تبنى على سجايا وأبعاد مختلفة وتتطور بتطور حوادث الرواية، واحتكاكها بغيرها، نجدها تفاجئنا بين فينة وأخرى، وعلى نحو مقنع، بجديد في التفكير والسلوك؛ وهذا نابع من تنامي الشخصية، ومن تنوعها وتباينها، وهذا التنوع طبقاً لأدراك الكاتب لسمات الواقع وتأثره بما يرى ويسمع، وكيف أنه أراد أن يحمّل الآخرين مسؤولية الخيبة التي يتعرض لها المجتمع، وبالتالي يشير تلميحاً إلى من كان السبب في ذلك، وكيف أنه اتجه إلى أكثر طبقات المجتمع في اختيار أبطاله ليكونوا نماذج الفضيلة والرذيلة، وبالتالي يضع يده على الجرح الذي كان السبب في إضعاف الجسد العربي، وتشتته.

البعد النفسي: يبحث هذا البعد من أبعاد تقديم الشخصية في الذات الإنسانية وفي الدواعي والأسباب التي تعد المحركات الأساس في سلوكها، وللبعد النفسي ارتباط وثيق الصلة بالبعدين الخارجي والاجتماعي، لما لهما من تأثير في نفس الشخصية، وبالتالي في السلوكيات التي يمكن أن تصدر عنها، فهو يعنى بانفعالات الشخصية، وهدوئها، وانطوائها، وانبساطها، وما تعانيه من عقد يبدو تأثيرها واضحاً في الشخصيّة وفي أفكارها ومشاعرها(٣٣)، وطريقة تعاملها مع الآخرين، ومع الظروف التي تحيط بها.

لذا فملامح الشخصيّة الداخلية يمكن أن تحددها الملامح الخارجيّة، لعلاقتها الوثيقة بها، ولوجود رابط يربط بين شكل الشخصية الخارجي والحالة النفسيّة التي هي عليها . إلا أنّ هذا لا يكون مطلقاً . فالشخصيّة قد تحددها البيئة المحلية التي تعيش بها وما فيها من خصوصية تمارس تأثيراً معيناً في شخصيّة دون سواها، بمعنى أن تكون معبّرة عن واقع اجتماعي معين، كذلك فالملامح الداخلية تتحدد بما يضطرب لدى الشخصيّة من هواجس وانفعالات، لذلك نجد بعض كتّاب الرواية يعتمد أسلوب تيار الوعي في الكشف عن خبايا الشخصية وانفعالاتها، وبواعثها الداخلية؛ لما له من دور يمكّنهم من المشاركة الذاتيّة في معالجة المشكلات الاجتماعيّة التي تحيط بالشخصيّة. وعلى الكاتب أن يحرص على المواءمة بين الشخصية وواقعها الاجتماعي، وهل أنها ارتكبت مثل هذه الأفعال عن قصد، أم أنها دفعت إليها دفعاً وأجبرتها ظروف معينة على فعلها، والوقوع أسيرة أهواء ورغبات من الصعب تجاوزها. " لأنّ؛ الطبقات التي تعيش على الكفاف تُغمر في كسب ما يكفي حاجاتها، وما دامت حاجاتها في تزايد؛ فإنّ الوقت بالنسبة لها أضحى ضئيلاً بشكل لم يعد يمكّنها من توسيع مدركاتها الفكريّة، وأساليب تفاعلها مع الواقع، فضلاً عن ضجرها من العصر وما يسوده من تقدم سريع في تركيب الحياة، وأسلوب تفاعل مكوناتها المختلفة(٣٤)، وهذه الحاجة هي ما حدا بالشخصيّة أن تنهج نهجاً خاطئاً في طريقة حصولها على ما يسد حاجاتها.

إلاّ أن ما يمكن أن نلحظه على الرواية أن هناك مغالاةً وإسرافاً من الكاتب، إذ يصور أبناء مصر وهم غارقون في الرشوة والاختلاس والفساد، والذل والهزيمة، حتى عم عبده وعشماوي اللذان يرفضان الهزيمة ويحلمان بيوم النصر، يفقدهما نجيب محفوظ مناعتهما الطبيعيّة ليجعلهما عرضة لفتك الجراثيم، وهو يقدّم ذلك في تقريرية ومباشرة، وانفعال صاخب في بعض الأحيان. ويجعل هاتين الشخصيتين تعيشان صراعاً بين الحقيقة والأسطورة، فهو بالوقت الذي يصور لنا صمودهما في معترك الحياة والتزامهما تجاه القضايا الوطنية، على الرغم من بساطة الحياة وهوان الصحة، يخرج لنا بقضية عليات وسنيّة وممارستهن للجنس مع حسني حجازي زبون منتصف الليل في المقهى المتواضع :

" وكان عم عبده يعنى بنارجيلة الأستاذ عناية خاصّة، لا من أجل البقشيش فحسب، ولكن لعلمه بأنها السّر وراء زيارات الأستاذ للانشراح، فضلاً عن حنينه إلى مسقط رأسه بشارع الشيخ قمر. والأستاذ حسني في الخمسين ولكنه يفيض بحيوية عجيبة ولم تشب له شعرة واحدة، ويبدو أنه يسعد حقيقة بوجوده في المقهى المتواضع بين صاحبيه وفي مناجاته الطويلة مع النارجيلة (٣٥).

فهو يرى أنّ المجتمع يعيش أزمة أخلاقية حقيقية، وأننا مثلما ندين تصرفات كهذه علينا في الوقت نفسه، أن ندين بشدة من أسهم في تفشي هذه الأزمة، بتوظيف أمواله وإمكانياته حتى تشيع الفاحشة بين الناس، والمرأة في هذه الرواية لم تأخذ مساحتها وحجمها الحقيقي، وإنما صورها في مجال ضيّق لا يتعدى المتعة والوقوع في خطيئة الزنا، بينما كان من المفروض عليه أن يعطيها دوراً مهماًَ في مساندتها للرجل في مثل هكذا ظروف، ولكن حالة الانكسار النفسي التي أصابته جعلته يفقد الأمل في كل شيء، ويصاب بشيء من ألإحباط، وقد ظهر هذا جلياً في الأحداث التي يسوقها في روايته، حيث تطالعنا المرأة وهي فاقدة لقيمتها وطهرها، ثمّ وهي تنوء بحمل ثقيل من الهموم والأحزان حيث حرص على تصوير مأساتها في ظل الحرب والهزيمة، فهو على ما يبدو يبحث عن النقاط الجزئية الصغيرة في الحياة اليوميّة، ليعطينا بعد ذلك رؤية متكاملة لحركة المجتمع وللضياع الذي أصابه؛ لأنّ بنية الإحساس بالضياع ترد في صورتين : إحداهما تؤسس لفضاء فردي . والأخرى لفضاء جماعي، وكلاهما يتناوبان على فضح الوضعيّة المزرية للمرأة، ذلك أن انهزام العرب العسكري أمام (إسرائيل) أدّى إلى معاناة فرديّة تتجلى في فقدان الرجل كسند لها في الحياة، ونتيجة هذا الفقد تنشأ معاناة جديدة تتجلّى في البحث عن حلول للحصول على ما يسد متطلبات الحياة الكثيرة، وهذا ما اضطرها إلى أن تنحرف عن مسارها الصحيح وتلجأ إلى دور البغاء والرقص أو غيرها من الأساليب الرخيصة التي تفقدها عفتها وطهرها(٣٦)، والكاتب لجأ إلى مثل هذه الأحداث لتقريب صورة الواقع إلى الأذهان، وللسخرية من مجتمع تنخر فيه التناقضات.

إنّ استحضار الشرف المهتوك يشير إلى أنّ المرأة ليست وحدها المسؤولة عمّا يحدث،

وإنما يشاركها في ذلك من كان يقف خلف ما يمرّ به المجتمع من ظروف، وهذا واضح في الحوار الذي دار في شقة حسني مع سنية:

". لم يعد غريباً على هذه الحجرة أن تشهد وداع الأحبة ..

فقالت سنيّة :

. أنت رجل كريم، في الحياة والحب ..

فقال متظاهراً بالاهتمام :

. من حسن الحظ أني حصلت أخيراً على فلم ممتاز لا تقل مدّة عرضه عن ربع ساعة ..

فابتسمت سنيّة ولكن بلا حماس. وتذكر كيف صرخت عند رؤية المشهد الأوّل من أول فيلم. كان ذلك منذ سنوات وكانت طالبة في الجامعة أو تلميذة بالثانويّة. وكانت المفاجأة بالغة الإثارة والرعب. وقال بأسف :

. عليات انتهت، خسارة فادحة ..

فقال في دعابة :

. لا بأس من إباحة اللهو حتى الزفاف ..

فرمقته بعينيها الخضراوين وقالت بلهجة ذات معنى :

فكرة الزواج تخلق المرأة من جديد ..(٣٧).

ثم يستمر الحوار بعد ذلك يتبادلان فيه أطراف الحديث ويتذكران سويّة كم من الفتيات شهدت هذه الغرفة، وكم من الساعات قضيت فيها حتى أن سنيّة يخيّل إليها أنّ جميع النساء اللاتي يمررن من شارع شريف . الخالي من الشرف . أنهن ذاهبات إلى شقته أو راجعات منها. وكيف أنها في توديعها له كما فعلت عليات طمأنته أن هذه الشقة لن تشهد الوحدة أبداً.

كذلك الحال في حوار محمد رشوان المخرج السينمائي مع منى زهران:

. جو المكتب غير مناسب لهذه الأحاديث الطلية فأنا أدعوك للعشاء !

لما قال لها ذلك أدركت ما يعنيه وهي تشعر بالغثيان .

أمّا هو فاستمر يقول :

. يجب أن تري عشي الخلوي بالعامرية

وأحست بأنفاسه المشبعة بالتبغ وهي تتردد على خدّها فثار غضبها ولطمته على وجهه !

تراجع في وقفته حتى استقام عوده، وتحجرت نظرته وانتفخ خدّاه بالغضب، وبسرعة هوى على خدّها بكفه الغليظة فترنحت وتهاوت على الأرض . وصاح بها :

. تظنين أنك امرأة لا يجوز مسّها في عرف اللياقة العصرية، يا خنزيرة يا بنت الخنزيرة !

قامت مشعثة الشعر ورأسها يدور وهي لا تصدق فصاح بها مرّة أخرى :

. أخرجي يا عاهر وقصّي هذه القصّة على أمك .. (٣٨).

كذلك نلاحظ أن ما يزيد في سوء الحالة النفسيّة للشخصيات، أنّ هناك نوعين من الصراع يشهدهما المجتمع العربي المصري، الأول : يتجلّى في جبهات القتال مع العدو الصهيوني، الذي يقدم فيه أبناء مصر المخلصين أعزّ ما لديهم للذود عن شرفهم وكرامتهم، وبذلوا من أجله التضحيات السخية والدماء الزكية، والثاني : هو الصراع الداخلي، الصراع مع أبناء البلد ذاتهم ممن سولت لهم أنفسهم وساعدتهم أموالهم أو وظائفهم أو مكانتهم الاجتماعية أن يستغلوا ضعف الناس وحاجتهم . بسبب ما يحيطهم من ظروف . أن يصبحوا سيفاً بيد العدو يحزّوا به رؤوس الأهل، وأداة طيعة بيده تفعل ما لم يستطع هو فعله.

الخاتمة

١ . الكاتب في روايته يصور لنا أحداث نكسة حزيران ١٩٦٧، وتأثيرها في الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للمجتمعات العربية، وانعكاسها على الشخصيات.

٢ . الكاتب يتأثر بما يدور حوله في المجتمع وأعماله هي وليدة هذا التأثر، لذا نلاحظ على روايته ملامح الانهزام والتراجع.

٣ . للعنوان دلالة تحمل بين طياتها مضمون الكتابة المندرجة تحتها، وهو مفتاح الولوج إلى عالم النص.

٤ . الكاتب استعار مفردة(مطر) ووظفها في عنوان روايته لتدل على معنى الدمار والخراب الذي أصاب المجتمع العربي.

٥ . الرواية صورة صادقة لحياة الركود والعطالة التي أصابت المجتمع وأخذت تنخر في جسده، وهذا واضح من تصوير الكاتب للشخصيات ، ولحياتهم التي يعانون فيها وطأة الاستغلال.

٦ . في الرواية ثورة على جشع البرجوازية ، وانحرافها، وتقويم المعوج ، وتصويب المسار نحو الفضل.

٧ . الرواية تعنى بالحياة الشعبية وبتفاصيلها العادية من شخصيات، وأماكن، وترصد تحركات الشخصيات وسكناتهم، في تلك الأماكن والحارات والشوارع، والمقاهي، التي تعبر عن طبيعة الحياة التي تحياها تلك الشخصيات، بعيداً عن التزييف والتزويق.

٨ . العديد من شخصيات الكاتب محبطة، هي مزيج من القلق والسوداوية، وعدم الاستقرار مع انعدام التوازن، الناجم عن الحياة المضطربة التي تعيشها وتجعلها غير قادرة على البحث عن حلول تنهي بها أزمتها.

٩ . هناك نوع آخر من الشخصيات يقابل الشخصية المحبطة، نجدها تبحث عن سبيل يساعدها على الخلاص من محنتها، بعدما تلاشت القيم والنظم والأفكار، بسبب ما أحدثته الحرب من تأثير فيها.

١٠ . إن اهتمام الكاتب بالشكل الخارجي(المظهري) للشخصية، ساعدنا في بعض الأحيان على سبر أغوارها ومعرفة كوامنها وبالتالي تحليل وتقويم سلوكياتها.

١١ . للبعد النفسي دور في معرفة الدواعي والأسباب التي كانت وراء سلوك الشخصية وتصرفاتها، والأسباب التي أثرت في نفسيتها.

الهوامش:

(١) ينظر: بانوراما الرواية العربية الحديثة، سيد حامد النساج، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت، ط١، ١٩٨٢ :٦٠ .

(٢) ينظر: الأديب والالتزام، محمود الجومرد، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٨٠ : ١٠٠ .

(٣) ينظر: الرواية في الأدب الفلسطيني ١٩٥٠ـ١٩٧٥ ، د.احمد عطية أبو مطر، الجمهورية العراقية ، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، ط ١ ، ١٩٨٠ : ٢٢٨.

(٤) ينظر : شعرية العنونة . أسميك بحراً .. أسمي يدي الرمل . أنموذجاً ، أ. د. بشرى البستاني ، مجلة آداب الرافدين ، كلية الآداب، العدد ٣٥ ، ٢..٢ : ١٧٨ .

(٥) ثريا النص (مدخل لدراسة العنوان القصصي) محمود عبد الوهاب ، الموسوعة الصغيرة (٣٩٦)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٥ : ٩ .

(٦) مختار الصحاح ،محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي،دار الرسالة للنشر، الكويت،١٩٨٣ :٦٢٦ .

(٧) سورة النساء ، آية ١٠٢ .

(٨) سورة الفرقان ، آية ٤٠ .

(٩) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء، بإشراف معالي الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد والمشرف العام على المجتمع، المملكة العربية السعودية، الأمانة العامة ، مركز الدراسات القرآنية: ٣٦٣ .

(١٠) سورة الشعراء ، آية: ١٧٣ .

(١١) سورة النمل، آية: ٥٨ .

(١٢) ينظر: واقعية الأدب في رواية(آنا كارنينا) لتولستوي، بقلم د. ياسين الأيوبي، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١ ، ٢٠٠١ : ١٨ . ١٩.

(١٣) الحب تحت المطر، نجيب محفوظ، منشورات دار مصر للطباعة، ط ١، ١٩٧٣ : ٢٨ .

(١٤) م . ن : ١٦ .

(١٥) الحدث القتالي في قصة الحرب، باقر جاسم محمد، مجلة الطليعة الأدبية، العدد ١١ . ١٢ ، تشرين الثاني، كانون الأول، ١٩٨٨: ٧ . ٨ .

(١٦) انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية، شكري عزيز ماضي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٧٨ : ٧ .

(١٧) الأديب والالتزام ، محمود الجومرد : ١٠١ .

(١٨) في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، د.عبدالملك مرتاض، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٨ :١٠٣ .

(١٩) فن كتابة القصة، د.فؤاد قنديل، كتابات نقدية (١٢٣)، الهيئة العامة لقصور الثقافة،الأردن، ٢٠٠٢ : ٢١٣.٢١٠ .

(٢٠) من أنماط البطل في الرواية العراقية، د.صبري مسلم، مجلة الأقلام ، العدد العاشر، تشرين الأول، السنة الثانية والعشرون، ١٩٨٧ : ٧٥ .

(٢١) الرواية : ٣٥ .

(٢٢) م. ن : ٣٥ .

(٢٣) ينظر : شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة، د. محمد علي الهاشمي، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٩ ، ٢٠٠١ : ١٦٢ .

(٢٤) ينظر : من أنماط البطل في الرواية العراقية : ٧٧ .

(٢٥) الأديب والالتزام ، نوري حمودي القيسي، دار الحرية للطباعة،بغداد، ١٩٧٩ :٧ .

(٢٦) صورة البطل في الرواية العراقية (١٩٢٨ . ١٩٨٠) د. صبري مسلم، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب، جامعة بغداد : ١٦٧ .

(٢٧) فن الأدب ، توفيق الحكيم ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، ١٩٧٣ : ٢١١ .

(٢٨) دراسات في القصة العربية الحديثة،أصولها، اتجاهاتها، أعلامها، محمد زغلول سلام، الإسكندرية،(د.ت) : ١٦_١٧ .

(٢٩) الرواية : ٩ .

(٣٠) ينظر : م . ن : ٩ . ١٠ .

(٣١) الرواية : ٤١ . ٤٢ .

(٣٢) قضايا من الفكر العربي المعاصر، يوسف عزالدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ : ٤٨ .

(٣٣) ينظر: النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار الثقافة، دار العودة، بيروت، ١٩٧٣ : ٦١٥ .

(٣٤) الواقع الفكري والمجتمع العربي الجديد. د. متعب مناف، مطبعة العامل، بغداد، ط ١، ١٩٦٦ : ٢٣٠.

(٣٥) الرواية : ١٠ .

(٣٦) ينظر : البنيات الدالة في شعر أمل دنقل، عبدالسلام المساوي، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، بيروت، ١٩٩٤ :٣٤٧.٣٤٨.

(٣٧) الرواية : ٢٥ . ٢٦ .

(٣٨) الرواية : ٦٧ .

المصادر:

(١) القران الكريم.

(٢) الحب تحت المطر، نجيب محفوظ، منشورات دار مصر للطباعة، ط ١، ١٩٧٣ .

(٣) الأديب والالتزام، محمود الجومرد، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٨٠ .

(٤) الأديب والالتزام ، نوري حمودي القيسي، دار الحرية للطباعة،بغداد، ١٩٧٩ .

(٥) البنيات الدالة في شعر أمل دنقل، عبدالسلام المساوي، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، بيروت، ١٩٩٤ .

(٦) التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء، بإشراف معالي الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد والمشرف العام على المجتمع، المملكة العربية السعودية، الأمانة العامة ، مركز الدراسات القرآنية.

(٧) الحدث القتالي في قصة الحرب، باقر جاسم محمد، مجلة الطليعة الأدبية، العدد ١١ . ١٢ ، تشرين الثاني، كانون الأول، ١٩٨٨.

(٨) الرواية في الأدب الفلسطيني ١٩٧٥.١٩٥٠ ، د.احمد عطية أبو مطر، الجمهورية العراقية ، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، ط ١ ، ١٩٨٠ .

(٩) النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار الثقافة، دار العودة، بيروت، ١٩٧٣ .

(١٠) الواقع الفكري والمجتمع العربي الجديد. د. متعب مناف، مطبعة العامل، بغداد، ط ١، ١٩٦٦ .

(١١) انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية، شكري عزيز ماضي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٧٨ .

(١٢) بانوراما الرواية العربية الحديثة، سيد حامد النساج، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت، ط١، ١٩٨٢ .

(١٣) ثريا النص (مدخل لدراسة العنوان القصصي) محمود عبد الوهاب ، الموسوعة الصغيرة (٣٩٦)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٥ .

(١٤) دراسات في القصة العربية الحديثة،أصولها، اتجاهاتها، أعلامها، محمد زغلول سلام، الإسكندرية،(د.ت).

(١٥) شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة، د. محمد علي الهاشمي، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٩ ، ٢٠٠١ .

(١٦) شعرية العنونة . أسميك بحراً .. أسمي يدي الرمل . أنموذجاً ، أ. د. بشرى البستاني ، مجلة آداب الرافدين ، كلية الآداب، العدد ٣٥ ، ٢٠٠٢ .

(١٧) صورة البطل في الرواية العراقية (١٩٢٨ . ١٩٨٠) د. صبري مسلم، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب، جامعة بغداد .

(١٨) فن الأدب ، توفيق الحكيم ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، ١٩٧٣ .

(١٩) فن كتابة القصة، د.فؤاد قنديل، كتابات نقدية (١٢٣)، الهيئة العامة لقصور الثقافة،الأردن، ٢٠٠٢ .

(٢٠) في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، د.عبدالملك مرتاض، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٨ .

(٢١) قضايا من الفكر العربي المعاصر، يوسف عزالدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ .

(٢٢) مختار الصحاح ،محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي،دار الرسالة للنشر، الكويت،١٩٨٣ .

(٢٣) من أنماط البطل في الرواية العراقية، د.صبري مسلم، مجلة الأقلام ، العدد العاشر، تشرين الأول، السنة الثانية والعشرون، ١٩٨٧.

واقعية الأدب في رواية(آنا كارنينا) لتولستوي، بقلم د. ياسين الأيوبي، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١ ، ٢٠٠١.

Abstract

The current study has been conducted within the application analysis of the historical and reality components in (Love under Rain) novel by Najeeb Mahfoodh and the relationship between these two components with this novel. Thus, the novel has a deep-rooted historical background prevailed by the events as well as helping in securitizing the current situation. This may exposed to serious challenges, the past may also extend to the present, penetrate and affect on it. If we desire to scrutinize certain issue and analyze the situations, we should back the major causes within the analytical frame of the novel texture. The study has been classified into introduction and prelude treated the effect of history in the situation, so that their relation has been treated as well as the title of the novel and what has been innuendo that may help in deepening the stylistics. The narration of the events series during 5th June 1967 has focused on the effect of characters and events. The characters were almost treated according the depressed and patriotic ones, and the dimensions of threads. Their relation with the events has been also treated, that it is the fundamental motivation. The study concluded a group of results; the novel deals with the reactions of people towards the events that make them think and behave now and then, the motivation of their behaviors and suitable solution

supposed by novelist to exceed the hiders. These solutions may treat the suffering of the destructed nation.